مساهمة ابن سيدة وجهوده في علم اللغة

أصغر علي بيك *

إن أبا الحسن علي بن إسماعيل بن سيده هو عالم كبير ولغوي جليل وأديب عملاق ومتخصص في العلم والفن، تعلم أولا من أبيه الذي كان عالما ونحويا ولغويا،(١) ثم تتلمذ على كبار العلماء والشيوخ، ومنهم صاعد البغدادي(ت ٤١٧هـ) الوافد على الأندلس من المشرق، وأبو عمرو أحمد بن محمد الطلمنكي (ت ٤٢٩هـ) وصالح بن الحسن البغدادي (ت ٤٢١هـ) وغيرهم من العلماء والشيوخ، ولم يقتصر على علم اللغة والأدب بل درس كل ما كان شائعا في زمانه وما يتفق مع طبيعته، وأخذ شتى العلوم والفنون ولكن تخصصه كان في مجال اللغة والأدب الذي كان له فيه مكانة مرموقة وشهرة فائقة، كما قال فيه جلال الدين السيوطي "لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بها متوافر على علوم الحكمة"(٢) وقال القاضي صاعد (ت ٤٦٢هـ) عنه: "وألف فيها تأليفا كبيرا مبسوطا ذهب فيه إلى مذهب متى بن يونس (ت ٣٢٨هـ) وهو بعد هذا أعلم أهل الأندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار، وأحفظهم لذلك حتى أنه يستظهر كثيرا من المصنفات فيها، كغريب المصنف، وإصلاح المنطق...(٣)

وكذلك قال محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي (ت٤٨٨هـ): "هو إمام في

---

* باحث الدكتوراه بجامعة مليه الإسلامية، دلهي الجديدة

اللغة والعربية، حافظا لهما، على أنه كان ضريرا وقد جمع في ذلك جموعا، وله مع ذلك حظ في الشعر وتصرف". (٤) وأثنى عليه صاحب المغرب قائلا: "لا يعلم بالأندلس أشد اعتناء من هذا الرجل باللغة، ولا أعظم تواليف، تفخر مرسية به أعظم فخرا، طرزت به برد الدهر، وهو عندي فوق أن يوصف بحافظ أو عالم".(٥)

ومن هنا يمكن لنا القول بأن الأندلس يكفي لها فخر بأمثال هذا اللغوي والنحوي الشهير علي بن إسماعيل بن سيده، كما قال سعد عبد الله البشري صاحب الرسالة "الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس" نقلا عن ابن سعيد (المتوفى: ٦٨٥هـ) من كتابه "المغرب في حلي المغرب" (ج٢، ص ٢٥٩) "ويكفي الأندلس فخرا أن تزهو بأمثال العلامة اللغوي النحوي الشهير علي بن إسماعيل بن سيده الأعمى من مملكة دانية(ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م) كان عالما باللغة، متضلعا في علومها حتى وصف بأنه لا نظير له اعتناء باللغة ولا أمهر منه في معرفة أسرارها، وأن مؤلفاته فيها تعد أعظم ما أنجز في ذلك.(٦)

إنه كتب كتابه الشهير "المخصص في اللغة" الذي يعد من أعظم الكتب في اللغة، من يطلع على هذا الكتاب فإنه سيجد ما كان عليه ذلك العلامة من علم واسع ومعرفة عميقة وشاملة لم تتأتّ لغيره، والكتاب في مضمونه لغوي مرتب حسب المعاني وكل موضوع من موضوعات الحياة البشرية من مادي ومعنوي يذكره مفردا، ويضع له بابا خاصا به ثم يذكر جميع ما ورد فيه من العرب من ألفاظ وجمل.

وكذلك كتابه "المحكم والمحيط الأعظم" من أحسن المعاجم اللغوية التي سار مؤلفها على نهج الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى: ١٧٠هـ) من حيث

ترتيب الأبواب داخل كل كتاب من كتبه ومن حيث توزيع المواد اللغوية في أبواب الكتب، وكذلك من حيث إيجازه أثناء العرض، ولما تضمنه من تخريج وتعليق وتعليل حول المسائل الصرفية والنحوية بالإضافة إلى اشتماله على صيغ ومصطلحات وشروح.(٧)

قد ذكر ابن سيده في مقدمة كتابه المؤلفات والمصنفات التي أخذ عنها واستفاد منها، إنه قسم هذه المؤلفات إلى قسمين، أحدهما لغوية وثانيهما نحوية، فهو يقول في هذا الصدد: "وأما ما ضمناه كتابنا هذا من كتب اللغة، فمصنفات سيبويه وأبي عبيد والشيباني والفراء وأبي زيد وابن الاعرابي وكتب أبي العباس أحمد بن يحيى وكتب أبي حنيفة وغير ذلك من الكتب الأخرى وغير ذلك من المختصرات كالزّبرج، والمُكَنَّى، والمُبَنَّى، والمُثَنَّى، والأضداد والمُبدَل، والمقلوب، وكتب أبي علي الفارسي الحلبيات والبغداديات والأهوازيات والتذكرة والحجة والأغفال والإيضاح، وكتب أبي الحسن بن الرماني كالجامع والاغراض وكتب أبي الفتح عثمان بن جني كالمغرب والتمام وشرحه لشعر المتنبي والخصائص وسر الصناعة والتعاقب والمحتسب".(٨)

ومن مصادره التي جمع منها المادة اللغوية والنحوية هي إصلاح المنطق وكتاب الفصيح لأبن سكيت(ت٢٤٤هـ) والنوادر والمجالس لثعلب(ت٢٩١هـ) وكتب ابن جنى (ت٣٩٢هـ) وأبي علي الفارسي(ت٣٧٧هـ) وابن دريد (ت٣٢١هـ) وكانت هناك مصادر أخرى لم يستطع ابن سيده حصرها واختارها وجمع موادها من هنا ومن هناك، وهو يسجل ذلك فيقول: "إلى أشياء اقتضيتها من الأشعار الفصيحة والخطب الغريبة الصحيحة".(٩)

نلاحظ أن ابن سيده نسب مادة كتابه إلى الأصول المشرقية بغير الالتفات

إلى المؤلفات اللغوية الأندلسية، وأغلب الظن أن ابن سيده استفاد منهم واطلع على مؤلفاتهم وإن كان يصعب إثبات ذلك، لأن مصادر القالي(ت٣٥٦هـ) والزبيدي(ت٣٧٩هـ) وابن القوطية(ت٣٦٧هـ) وابن سيده هي في الأساس واحدة، جاءتهم من المشرق، وجميعهم طوروا أساليب وطرائق أخذوها عن المشارقة، فلذلك هذا من باب المشكلة هل استفاد ابن سيده من الفرع أم رجع إلى الأصل، ولا بد أنه عرف أيضا مصادر شفوية عديدة غير أنه لا يفرق في معجمه بين مثل هذه المصادر وبين المصادر المكتوبة.

أما المنهج الذي سلكه ابن سيده في كتابه "المحكم المحيط الأعظم" فهو منهج رائع جميل، وينقسم معجمه إلى حروف مرتبة وفق المخارج على النحو التالي:

(ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط ت د ظ ذ ث ر ل ن ف ب م ء ى و ا)

لقد بدأ ابن سيده كتابه بكتاب العين، وضم إلى كتاب العين كل المواد اللغوية التي تكون العين من حروفها، سواء أكانت حرفها الأول أم الأوسط أم الأخير.

وكذلك كتب ابن سيدة كتبا أخرى في هذا المجال، ومنها: "كتاب إصلاح المنطق" و "كتاب الأنيق في شرح الحماسة" في عشرة أسفار و "كتاب العالم في اللغة" على الأجناس في غاية الإيعاب نحو مأة سفر بدأ بالفلك وختم بالذرّة و "كتاب العالم والمتعلم" على المسألة والجواب و "كتاب الوافي في علم أحكام القوافي" و "كتاب شاذ اللغة" في خمس مجلدات و "كتاب العويص في شرح إصلاح المنطق" و "كتاب شرح الأخفش" وغير ذلك.(١٠) حسبما ذكر عن بعض هذه الكتب صاعد الطليطلي (ت٤٦٢هـ) وياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) والسيوطي

(ت٩١١هـ) والأدباء الآخرون. ومن بين الشروح اللغوية والأدبية التي كتبها ابن سيده كتاب "الأنيق في شرح الحماسة"، وقد ذكر العلماء والأدباء الآخرون كتبا أخرى للكاتب ولكني أرى أنهم اشتبه عليهم الأمر بين ابن سيده وابن السيد فلذلك هنا نكتفي الأمر.

المصادر والمراجع:

١. شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي: سير أعلام النبلاء، د ١٨، ص: ١٤٤ تحقيق: شعيب الأنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ
٢. جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة، ص: ١٤٣، تحقيق: محمد بن أبي الفضل، القاهرة. ١٩٦٥م
٣. القاضي صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص: ٦٧ تحيق: لويس شيخو ، المطبعة الكاثولوكية، بيروت، ط ١، ١٣٣٠هـ
٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص: ١٤٥ تحقيق: شعيب الأنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ
٥. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج٢~، ص: ٢٥٩، دار المعارف، مصر، ١٩٥٢م
٦. سعد عبد الله البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ص: ٤٣٥، رسالة الدكتوره، تحت اشراف: احمد السيد دراج سنة: ١٩٨٥م
٧. المستشرق داريو كاباليناس: ابن سيدة المرسي، ص: ١٠٥ العدد ٤، نوفمبر- ١٩٧٥م
٨. ابن سيده: المخصص، جذ، ص: ٢٦، دار احياء التراث العربي ببيروت لبنان، ١٩٩٦م
٩. ابن سيده: المحكم، ج١، ص: ١٥، مطبعة مصطفى، مصر ١٩٥٨م
١٠. ابن سيدة: المحكم المحيط الأعظم، مقدمة، ج١، ص: ٢، مطبعة مصطفى، مصر ١٩٥٨م

* * *